مجلة العلوم الإنسانية لجامعة أم البواقي
ISSN 1112-9255/E-ISSN 2588-2414
المجلد9 العدد1 – مارس 2022

OEB Univ. Publish. Co.

صراع القيم والسقوط الاجتماعي وأثرهما في تفعيل المأساة الوطنية قراءة في رواية (راس المحنة1+1=0) لـ" عز الدين جلاوجي".

The conflict of values and social downfall and their impact on the activation of the national tragedy– the novel (RASS EL MAH´ NA 1+1=0) of "AZEDIN DJLAWJI") as a model.

د. بن يمينة زهرة.

جامعة عبد الحميد بن باديس–مستغانم–الجزائر.

تاريخ التسليم:2022/02/02، تاريخ المراجعة: 2022/03/04، تاريخ القبول: 2022/03/21

الملخص

عرفت الجزائر بعد الاستقلال واقعا اصطدمت فيه القيم، وتفكّك على إثره أمن المجتمع وما لبث هذا التّآمر أن تحوّل إلى عامل مساهم في تفجير المأساة الوطنية، وصوّر هذا بجمالية بارعة في رواية (راس المحنة) لـ «عز الدين جلاوجي"، وهو تصوير قد جمع بين المتعة والواقعيّة الّتي تشخّص الأحداث، لِتُضاف هذه الرّواية إلى الروايات المعاصرة الّتي عالجت المحنة برصد كثير من التّفاصيل الاجتماعية، والسّياسية، والنفسيّة أيضا.

توصّلنا في الأخير إلى أنّ لثبات القيم، وتماسك المجتمع دور مهمٌّ في الحفاظ على استقراره وحماية نسيجه.

الكلمات المفتاحية: صراع القيم، المأساة الوطنيّة، تماسك المجتمع، سقوط المجتمع، راس المحنة.

Abstract

After independence, Algeria knew a reality in which values collided, after which the security of society, this became a contributing factor in the bombing of a national tragedy, and this was depicted with a masterful aesthetic in the novel"(RASS EL MAHNA)of "AZEDIN DJLAWJI", It's a depiction that has combined fun with realism that diagnoses events. As a resault we can add this novel to the series of contemporary Algerian novels. wicth deals the national tragedy by great social, political and also psychological details.

Finally, we found that the stability of values and the community cohesion play an important role in maintaining and protecting its stability.

Keywords : A conflict of values, The national tragedy, community cohesion, The downfall of society, "(RASS EL MAH´ NA).

*المؤلف المراسل: بن يمينة زهرة ، الإيميل: zohra.benyamina@univ-mosta.dz

1. مقدّمة:

لقد مدّت فترة التسعينيّات في الجزائر معظم الرّوائيين الجزائريين بمادّة غنيّة أخصبت الرّواية الجزائرية المعاصرة، وميّزتها بكتابة إبداعيّة تطرقت إلى مواضيع عدّة منها العنف، والتّطرّف، وصراع القيم (قيم الفرد وقيم الجماعة)، والسقوط الاجتماعي وغيرها.. وقد رصد "**عز الدين جلاوجي**" **في رواية (راس المحنة)** الأسباب المتقدّمة الذكر والّتي عُدّت الأرضية الّتي مهّدت لمحنة الجزائر، وفي تطرّقه لهذه الأسباب يكون قد أكسب لروايته منحى جديدا تجاوز به السّرد الّذي يركّز على العرض التاريخي إلى التوظيف الجمالي لمقوّمات السّرد، وغدت الرّواية بذلك حلقة اكتمل فيها مشهد وطني جمع بين التّصوير الواقعي والمتعة الفنيّة.

2. الاتّجاه الاجتماعي في الرّواية الجزائرية المعاصرة:

حدّدت الرّواية في هدفها العام مبدأ تصوير المجتمع وقضاياه، وخطت الرّواية الجزائرية في هذا الاهتمام خطوات شهد لها ما تمّ تأليفه في مضامين مختلفة، إذ تقاطع فيها الاجتماعي مع السّياسي والتّاريخي أيضا، وحضر فيها الهامش والمقموع كما المركز مجموعين في بوتقة واحدة استجابة لمبدأ الحياة المشتركة والمختلفة في الوقت نفسه، وهذا الحضور المتعدّد تجسّد بلسان شخوصه الّذين تتعدّد لغاتهم حسب نوازعهم وأوساطهم الاجتماعيّة، فتكون الرّواية الاجتماعية هنا حاملة لأكثر من ملمح لها؛ ملمح الشّخصيّات، والظّروف الاجتماعيّة، وفي هذا السّياق نجد أنّ ببليوغرافيا الرّواية الجزائرية المُتضمّنة لفترة التّسعينيّات قد اغتنت بحظّ وافر من المضامين الّتي رصدت فيها السّياق الاجتماعي الّذي أحاط بالإنتاج الرّوائيّ وقتها، فالنّص كما يقول ببير زيما: «كيان ملموس وحيّ يعيش حياته عبر قوانينه الخاصّة، لكنّه يحمل في هذه القوانين خصائص الحياة الاجتماعيّة الّتي يعيش في إطارها ويُبدَعُ ويُتَلقّى، ومن هنا فإنّه يسمّي منهجه علم اجتماع النص الأدبيّ، لكنّه يحرص على الاستفادة من المنهج السّميوطيقي، ومن البنيوية ومن التّحليل النّفسي، ومن نظريّات القراءة"(ببير زيما، ص8، 1985)، وتأكيدا لهذه الفرضيّة المنهجيّة، فإنّ كثيرا من الرّوايات وسّعت من أفق تلقّيها فتناولت ظاهرة المأساة الوطنية من عدّة جوانب، كالّذي نجده في رواية (راس المحنة) لـ"عزّ الدّين جلاوجي، و(دمية النّار) لـ" بشير مفتي"، (الموت في وهران) لـ" حبيب السايح"...وغيرها من الروايات ذات البعد المأساوي والحسّ التّصويري الهادف، وتتوسّط القيم وسط هذا الصّراع مُثُلا منشودة فقدت الانتماء لجهة معيّنة.

3. سيميائية العنوان في الرّواية:

يمثّل العنوان عتبة إشارية دالّة تختصر موضوع الرّواية، فهو عنوان اقتُبِس من قصيدة شعبية كتبها الشّاعر الصّوفي "**لخضر بن خلوف**"**(راس بنادم)**، وقد انتشرت في الأوساط الشّعبية وتغنّى بها شعراء الملحون، وتمّ اختيار عنوان هذه الملحمة الشّعرية عنوانا للرّاوية نظرا للمناسبة الّتي تجمعهما، فهذا الرّأس وجده أحد الفرسان في أطراف الصحراء، وبعد محاورة الشّاعر معه عرف أنّه شهد محنة قتل وتنكيل وضياع رغم أنه هاشمي، عربي، جزائري، وأصبح يتوسّل الشاعر أن يستره، كما تُعدّ إضافة الرّوائي للرّمز 1+1=0 استعارة رمزيّة بليغة جدّا تُقوِّضُ ما تمّ التّعارف عليه بأنّ 1+1=2، وهذا الخروج عن البديهي هو رمز مؤهّل لأن يوحي بأنّ مجموع القيم الّتي يعيش المواطن وهو متشبّثٌ بها لا تؤدّي دائما إلى نتيجة إيجابيّة، بقدر ما قد تمثّل خيبة وكسرا لأفق الرّجاء. ورمزيّة العنوان هذه أكسبت للرواية عمقا وبعدا في التصوير الواقعي" مما لاشكّ فيه أنّ

اختيار العناوين عملية لا تخلو من قصدية تنفي معيار الاعتباطية في اختيار التسمية، ليصبح العنوان هو المحور الّذي يتوالد ويتنامى ويعيد إنتاج نفسه وفق تمثّلات وسياقات نصيّة تؤكد التّعالقات الّتي تربط العنوان بنصه والنص بعنوانه"(عبد الفتاح الحجمري، ص19، 1996) فالحضور الوظيفي للعنوان شكّل رمزية ذات بعد دلالي واستعاري هام، كان له دور في استدعاء شخصيات ساندت هذا الانتقاء للعنوان، مثل شخصية "صالح" المجاهد، "الجازية" و"امحمّد الملمّد" وهي شخصيّات وظّفت ببلاغة لخدمة أدوارها المسندة لها، كما يوحي هذا العنوان بنسق مكرّر تابع لظروف معيّنة تتطلّب حدوثه.

ممّا زاد العنوان عمقا، العتبةُ الشّعريّةُ الّتي أُلحقت به مثّلها الإهداء الأوّل والإهداء الثّاني، ففاتحة اسْتُحضِرت فيها مشاهد تنوّعت بين الأسى والمعاناة، ومثال ذلك ما قاله في الإهداء الأوّل:

..إليكِ

(أيتها العين..) ع

****

ياسيدة الضياءْ

والأرض والسماء

ياسيدتي

ياشذا الحبق ولون الكستناء

وروح الروح وسرِّ الماء

داياتهم خسئوا

وانبجس الضّياء

تيهي على عرش قلبي

وازرعيه خصبا ومناء

واصَّاعدي.. اصَّاعدي

على درجات الفؤاد المولَّهِ

مقامك يا سيدتي

في عش السماء

في سدرة المنتهى

خطاب هذه العتبة يحمل هاجس الحنين للأنثى وما تحمله من عبق الحبّ والأنوثة المنشودة، ولا يخفى على أحد أنّ هذا الهاجس ظلّ أمل المحبّين في كلّ الأزمنة، فبها تاهوا وتغنّوا للأمّ وللحبيبة، وللأرض "الجازية هي هذه الأرض"(عز الدين جلاوجي، ص26)، وقد يتّضح أكثر من العتبة الثّانية (إهداء2) الّذي يمثّل تقابلا مُوضّحًا للمعنى:

..إليكَ

(أيّها العين..) ع

****

..ما زلت فوق جوادك

..مازال سيفك مل يُثلمْ

..مازال قلبك نابضا مل يُكْلم

..وعُداتك لو يدرون حني قتلوك أنك ال تعدم

..وأنك تبزغ من حناجر الطيور

ومن أكمام الجراح وعيون الصغار وثغور الزهور

ربيعا وبلسمْ

..لو يدرون يا سيد الرجال

..لكن القحط لا يدري سر البذور

..لا يدري أن مكمن الروح الجذور

لا يعلم

غدا يا سيّد الرجال

تبزغ من أناملكَ سوسنات

ومن عينيك قوزح ويمام وبدور

غدا تزرع بقلب عُداتك حبا ونورا لا يُظلم.

إنّ صيغ التّقابل في الإهداءين تكشف عن مناجاة روحية لأمل ما مُنتظرٍ، يخلقه التّوقع لكلّ ما هو مرجأ إلى حين تتّصل تلك الأرواح بما تحلم، فصيغة الحلم الّتي كشفت عنها بعض الألفاظ هي ملمحٌ إشاريّ لمحتوى الرّواية وإن كان مفارقا في بنيته اللغوية والنّصيّة، وعبر هذه المفارقة يُفتح المجال للتّأويل وللتّوقّع، وتكاملا مع هذه العتبات المُتقدّمة، أدّت عتبات الفصول دورا دلاليّا وتأويليّا آخرا(**شرفة أولى، الخروج من التّابوت، البحث عن العشّ، قراصنة الأحلام، الحبّ وعفونة الرّصاص، الخروج من التّابوت، شرفة أخيرة)**، وشكّلت ألفاظ هذه العتبات توليفة منسجمة رخّصت لعدّة معاني للظّهور احتماليّا. وخلاصة ما يمكن قوله في تعالق العتبات ودلالاتها، أنّ موضوع الرّواية له ظهور متدرّج من العنوان الرّئيس إلى الفرعي، ويظهر في ثنايا هذا التّدرّج هدف الراوي.

4. أسباب المأساة الوطنية في رواية (راس المحنة):

1.4 صراع القيم:

يقوم أي مجتمع على مجموعة قيم تعدّ نواةً مركزيّةً في الحفاظ على نسيجه، وفي تحديد طبيعة المعاملات بين أفراده، ويمكن تعريف القيم اصطلاحا بأنّها: "أحكام مكتسبة من الظروف الاجتماعية ينتشر بها الفرد ويحكم بها، وتحدد مجالات تفكيره وتحدد سلوكه وتؤثّر في تعلمه، فالصدق والأمانة والشجاعة الأدبية والولاء وتحمّل المسؤولية كلّها قيم يكتسبها الفرد من المجتمع الّذي يعيش فيه، وتختلف القيم باختلاف المجتمعات، بل والجماعات الصغيرة، والقيمة قد تكون إيجابية أو سلبية كالتمسّك بمبدأ من المبادئ، أو احتقاره والرغبة في البعد عنه "(مجموعة من المؤلفين، ص438. د.ط)، فالقيمة وما تستدعيه من ثوابت ونزوع نحو الأفضلية والارتقاء تُحدّد مرجعيّات أيّ مجتمع. من جهة أخرى يمكن القول أنّ تعريف القيم لا يستقرّ على مفهوم معيّن، فهي– أي القيمة– يختلف معناها بين علماء الاجتماع، والفلاسفة، وعلماء النّفس "يشوب التّعريف بهذه الكلمة نوع من الخلط الّذي يرجع إلى عدم التّفرقة بين القيمة الاجتماعيّة كمبدأ من مبادئ السّلوك، والقيمة بمعنى أهميّة الشّيء، كما يرجع هذا الخلط إلى تأثّر بعض الكتّاب الأنتروبولوجيّين المحدَثين وبخاصّة مع تلامذة **مالينوفسكي** بالدّراسات الاقتصاديّة الّتي تعالج قيمة الثّروة الماديّة في المجتمع" (محمّد عبده مجدوب، ص20،21)، والّذي يهمّ في دراسة متغيّرات المجتمع هو القيمة وعلاقتها بالسّلوك وما يترتّب عنها من تمثّلات الفرد لمعنى القيمة.

إنّ قيم المجتمع الجزائري هي الإسلام، والعروبة، وما حثّت عليه مبادئ الثّورة التحريرية المجيدة الّتي رسمت خطوطا عريضة للهويّة الجزائرية، غير أنّ هذه القيم في الرّواية تحوّلت من حالة توافق إلى صراع وتناقضات خلّف قوى متعارضة، وهذا ما تجسّد في رواية "**راس المحنة**" في شخص المجاهد "**صالح**" الّذي أصبح يرى أنّ ما يحيط به يتعارض وقناعاته، فهو شخص مجاهد خاض غمار جهاد قوي ضدّ الاستعمار، وبعد مرحلة الاستقلال عاش حياة هادئة في القرية، نتيجة إحساسه بالقيام بالواجب التّام أثناء الثّورة المجيدة، لكن الأمور انقلبت إلى عكس ذلك حين أصرّ عليه بعض رفاقه للانتقال للعيش في المدينة، ووُظّف حينها بصفته عون استقبال في أحد المستشفيات، هذه التّجربة من عمر هذا المجاهد كانت كفيلة بأن تضع قيمه وقناعاته الّتي ظلّ مؤمنا بها على المحكّ، فقد دخل في صراع مع مدير المشفى نتيجة حرصه على أداء عمله بإتقان، بل وكان يناوب مكان زملائه أحيانا، ويتأخر في وقت خروجه من المشفى حرصا منه على أداء الواجب لا غير، ويرفع تقريرا شفويّا للمدير بكلّ النّقائص الّتي كان يراها والّتي لم تكن في الحقيقة إلّا نقائص مفتعلة، لكن المدير لم يتفهّم هذا بحجّة أنّه يتدخّل في شؤون غيره، فهو كان يمثّل صورة عن تولّي غير الأكفّاء للمناصب، وتعزيزهم للطّبقية والإحساس بالظّلم، ولعلّها هي المرحلة الّتي بدأت تُعلِن عن خطر يُنذر بحالة عدم توازن في المجتمع اختلّت بموجبه المبادئ والقناعات، خاصّة وأنّ الشّخصيتين المتعارضتين من جيلين مختلفين، وكلّ منهما مُحمّل برؤى جيله وواقعه، الأمر الّذي يترتّب عنه تصادم في الذّهنيّات والواقع معا.

لقد خلّف الصّراع بين مدير المشفى والمجاهد "**صالح**" ثورة على مستوى الأفكار، وجعل هذا الصّراع –الشكّ– يطفو على اليقين أو يكاد، فعَقِب إحدى خلافاته مع المدير وإلحاق مجموعة من التّهم به، مثل: التّخريب، الإخلال بأمن المشفى، وطرح هذا المجاهد مجموعة أسئلة على نفسه منها: "رجعت إلى البيت ليلا يفترس القلق قلبي.. وفي نفسي كنت أردّد.. هل خدعونا حين أوهمونا أننا انتصرنا على الاستعمار؟ لقد توقّفنا وسط المعركة، ما الّذي أستطيع أن أفعله وحدي.. ليكن ما يكون أنا كالمحراث الّذي تعود والدي أن يضرب به المثل "يحرث واقفا أو ينكسر" (عز الدين جلاوجي، ص:36، 37.) إنّ تولّي هؤلاء المفسدين المناصب يعتبر إعادة لتاريخ استعماري غير مباشر، به تُكبّل الإرادات الفاعلة وتتحوّل عنوة إلى مهزومة "إنّ الاستعمار بالمرصاد، فهو يريد طبعا أن يضطرّ المكافح إلى الحلّ الثّاني، أي أن يضطرّه إلى الخروج من الميدان، ولسوف يستعين بطبيعة الحال إلى غايته تلك بجميع ما في البلاد المستعمرة من ضعف في حياتها الفكرية ومن رواسب سلبية في حياتها السياسيّة"(مالك بن نبي، ص24، 1981) ومثل هذه الانحدارات في مستوى القيم شكّلت فجوة لبداية صراع الصّلاح ضدّ الفساد، هذا الأخير الّذي بدأ ينخر في عصب هذا المجتمع، وأصبح يسرق خيراته ويتّهم المواطن الشّريف الثّائر قبل وبعد الاستقلال بالانحلال، وما زاد الأمر خطورة هو التّواطؤ الجماعي وتفشّي الرّذيلة، قال المجاهد صالح وهو يصف عبوديّة الموظّفين:" في الباب يلتفّ حوله العمّال المخلصون كالكلاب المدرّبة.. يرقصون بلا إيقاع...يملؤون له السيّارة بخيرات المشفى...لحوم..حبوب..خضر..مشروبات..عند الحادية عشر يخرج ولا يعود حتّى الغد، أمّا المرضى المساكين فلا يُعطى لهم إلا العدس بالماء"(عز الدين جلاوجي، ص: 30)، ومؤكّدٌ أنّ هذه مفارقة تعيد رسم ملامح المجتمع من جديد حمّالُ لمجموعة ذهنيّات غير متوافقة، ولا يمكن أن تتكيّف في هرم اجتماعيّ متجانس.

تحوّل الصّراع القيمي مع الآخر إلى صراع مع النّفس بعد عزلها وتجريدها من حقوق تحميها، حتّى غدا المواطن الغيور على بلاده في حالة اغتراب عن ذاته وعمّن هم حوله، ويحضر هنا قول المجاهد "**صالح**" حين انفجر قائلا تحت ضغط الاستلاب قائلا:" كلّكم اتّفقتم على التّخريب.. كلكم تآمرتم على هذا الوطن.. أنا لن أسكت.. تالله لن أسكت.. لن أسكت.. أنا صالح الرّصاصة.. دمي ودم أصحابي سقى هذه الأرض.. ولن يذهب سدى.. املكوا ما شئتم.. خذوا ما أردتم.. المسؤوليّات السّيارات الفيلات لست راغبا في مزابلكم"(عز الدين جلاوجي، ص: 36،37) لقد تحوّل هذا الرّفض المستمرّ إلى حالة من اضطراب نفسي تعرّض له هذا المجاهد حتّى طال اسمه، إذ تحوّل من "صالح رصاصة" إلى "صالح المغبون" ثمّ "صالح المجنون" وهذا نتيجة صراع وانحدار تامّ في سلّم القيم، وتحوّلها إلى قيم فرديّة تؤدّي بصاحبها إلى المرض بعد أن كانت قيما جماعيّة يلتفّ حولها الأفراد يرسمون من خلالها وحدتهم، وانحصر الفرد إثرها في شرنقة الماضي عوض التّقدم إلى الأمام، وهذا ما جعل المجاهد "صالح" يلجأ دائما إلى مقبرة الشّهداء عندما يحاصره المجتمع الرّافض له، ولمبادئه وقيمه " قلت السّلام عليكم أيها الإخوان.. السّلام عليكم أيها الشّهداء الكرام.. اسمحوا لي كان لازما عليّ أن أتوضأ قبل أن أجيء.. لكن الله غالب جئت عجلا وحالتي متدهورة والماء.. الماء لا نراه غير مرة في الأسبوع.. مشيت خطوات خائفا مرتعدا.. أخرجت زجاجة العطر ورحت أرشهم قبرا قبرا وأنا أبكي وأستغيث.. اسمحوا لي.. اسمحوا لي.. لم تركتموني وراءكم وحدي.. حرام عليكم.. لم هربتم عليّ؟ ألم نكن جسدا واحدا.. روحا واحدة؟ لقد بقيتُ وحدي.. من يقف معي في هذا المدينة المتوحشة؟ عجزت.. ما قدرت أن أواصل المسيرة.. الطريق صعبة.. ملآنة بالأشواك والمطبات.. وأنا أبدلوا لي حتى اسمي..' (عز الدين جلاوجي، ص38) لقد أدّت هذه الأسباب مجتمعة إلى عزل أمثال هذا المجاهد عن المجتمع، أي عزل الماضي عن الحاضر وهو صراع سيفجّر أخطاره على المدى البعيد، إذ ستظهر أرواح مكلومة تعصف بها عزلتها وتوقظ فيها نزعة الانتقام أو العزلة المُفضية إلى الإحساس بالظّلم.

2.4 السّقوط الاجتماعي:

مثّل السقوط الاجتماعي بكلّ حيثياته دورا هامّا في تزايد وتيرة الاضطراب، إذ أصبحت كلّ الأوضاع تشهد تدهورا خطيرا وتنذر بقرب أزمة قوية لا قبل للجزائر بها، كما نطق بذلك لسان حال المجاهد صالح هو يتابع أخبار الوطن في توقيتها المعتاد، وما تحمله من تصريحات لمسؤولين لا ينتمون إلى واقع مدجّج بخيبات المواطن، والأَمَرُّ من ذلك أنّهم يصرّحون بأوهامهم بلسان هجين خليط بين لغتين مختلفتين: «الوضع أصبح أكثر تدهورا.. مستوى المعيشة أصبح مفزعا.. حرية الرأي حمامة مشنوقة في كل مكان.. بطالة سافرة أو بطالة محجبة.. بلادنا أصبحت سوقا ضخمة لسلع تنتجها حتى الدول الضعيفة.. وتستوردها عصابات أثرت على حساب الوطن.. تدنٍّ لمكانة العلم ومكانة أهله حتى غدوا محل احتقار الدهماء والرعاع.. الأقلام النزيهة غدت بين فكين.. فكُّ الإرهاب وأصحاب المصالح وفكُّ أصحاب الأمر والنهي.. مستنقعان يجب أن يسبح قلمك في أحدهما أو فالويل له.." (عز الدين جلاوجي، ص142، 143) وأمام ضيق الأمل هذا يصبح الفرد أكثر قلقا ورفضا لما يحيط به" ففي مقابل سرد السّلطة الّذي يبسط تاريخا أحاديّا للحدث(الثّورة)، بوصفه التّاريخ الحقيقي، تاريخ الأمّة، تُنتج الرّواية سردا انتهاكيّا، يزرع التّشكّك والتّفكّك في خطاب السّلطة، حيث تنبثق الأصوات المقموعة من هاوية نسيانها، بما يُغيّر شروط الخطاب الّتي صاغت

سلطة الماضي"(محمّد بوعزّة، ص63، 2014)، لقد أصبحت لسلطة الازدواج الحضور الفعلي الطّاغي، والّذي ترتّب عنه ازدواج في الشّخصيّات.

1.2.4 زيف المدينة وانحطاطها:

نتج عن تغيّر القيم وتصادمها تغيّر في البنية الاجتماعيّة وانحدارها، وأوّل علامات هذا التغيّر ظهر في صورة المدينة والرّيف، اللّتين أصبحتا متضادّتين تماما، فالمجاهد متعلّق بالقرية تعلّقا روحيّا لا يكفّ عن وصفها في كثير من المقاطع الروائيّة بأنّها أمُّ رؤوم تجمع الكلّ تحت غطائها "هذه القرية الصغيرة تنام حالمة بريئة كرضيع في حضن جبل جبّار.. كل شيء جميل ليس هناك مكان للنفاق والخديعة ولا للزيف والمكر.. كسرة الشعير وطاس اللبن كانا طعامنا جميعا.. عشرة.. عشرون.. ثلاثون ليس بيننا جوعان.. نرقد كلنا في فراش واحد.. مخدة واحدة..حائك واحد.. وقلب واحد..الحب ينثر فوق رؤوسنا أكاليل الورد.." (عز الدين جلاوجي، ص14 ،15) فهي معقل الجهاد أثناء الثّورة وممثّلة لشريحة عريضة من المجتمع تجشّمت شرف المقاومة، وتتيح لذلك فإنّ التّخلّي عنها والانتقال للعيش في المدينة هو بمثابة منعرج خطير في حياة المجاهد "صالح" "الرؤية الرّيفيّة أو التّقليدية للعالم، وهي الرؤية المُنبثقة من درجة عالية من التّجانس الثّقافيّ الّذي يمكن القول معه بالقول بالمجتمع المستقرّ والمتكامل من حيث الوظيفة السّوسيولوجيّة، مجتمع يحكمه نسق اجتماعيّ واحد، وينهض على آليات الاعتماد الفردي المُتبادل بين أفراده وجماعاته وشرائحه الاجتماعية المختلفة، ولكن توتّراته لا تبلغ درجة الصّراع"(عبد الله إبراهيم وآخرون، ص:180، 2009) ومقابل ذلك أصبحت صورة المدينة تمثّل كلّ ما هو دنيء وغير إنساني، يقول المجاهد صالح في وصف أزقة المدينة:" انطلقت سريعا.. الأزقة ضيّقة.. الجدران سوداء.. الأرض مفعمة بالجرب.. كلاب راقدة قريب منها قطط.. لحظات شاهدت سكران يبول في الطريق.. لحقه آخران معربدين.. رائحة الخمر تملأ الهواء.. كل شيء متعفّن.. سجن في سجن.." (عز الدين جلاوجي، ص37) ما يزيد من زيف المدينة وانحدار القيم فيها، هو المفارقة في تسمية بعض الأماكن بأسماء لتعكس الواقع بل تُشوّه ما سُمّي باسمها، مثل: مخمرة الاستقلال، ووسم البلدية بلافتة (بالشعب وللشعب) في حين ينام فوق مرمرها امرأة مع أطفالها، ويصفها في مقطع أخر قائلا: "جريت.. جريت.. كأنني في ريعان الشباب.. أحسست أني خرجت من المدينة.. خرجت من السجن.. من زنزانة سلطان طاغية.." (عز الدين جلاوجي، ص 38) لقد كانت صورة المدينة فسيفساء من التناقضات والفوضى تنمّ عن حياة غير هادئة، تحضّر نفسها لانفجار اجتماعي قريب" ومن هنا يصبح الفضاء الاجتماعي مجزّأً ومُكوّنا من مجموعة من الفضاءات المتعدّدة والمتلاصقة والمعزولة بعضها عن بعض، وتصبح تلك الفضاءات مكانا للغربة، بدلا من الألفة والوئام، وتتّسم بقدر كبير من الانغلاق الّذي يدعو إلى فرص أوسع للحَراك الاجتماعيّ بين تلك الفضاءات...وفي هذا المناخ يسيطر الوعي الفرديّ الجمعيُّ ويستمرّ في حال من الصّدام المستمرّ معه""(عبد الله إبراهيم وآخرون، ص:182، 2009).

2.2.4 سقوط الرّموز التاريخية:

للحضور التاريخي بكامل قيمه ورموزه في متن الرّواية دور هام في تعزيز القيم الإنسانيّة، من أجل تعزيزها في المجتمع بغية حماية نسيجه، والمحافظة على قيم الهويّة الّتي يتشبّع بها الفرد ويتّخذها موردا لوطنيته، غير أنّ هذا الحضور بدأ يتعرّض للشكّ عند جيل ما قبل المأساة الوطنية، بل أصبحت هذه الأرضية تهتزّ تحت وقع عدم إيمانه بها" فقطب الرّحى في الرّواية هو دفع

الظّروف التّاريخيّة إلى خلق وضع وجوديّ جديد لشخوصها يمكّن من فهم التّاريخ في حدّ ذاته وتحليله بوصفه وضعا إنسانيّا ذا مدلول وجوديّ...فالرّوائيّ يرسم خريطة الوجود أثناء اكتشافه لإمكانيّات غير معروفة تعكس أعماق العالم الإنساني"(محمّد القاضي، ص:11، 2008)، ومن خلال هذه المقاربة نجد في الرّواية أحد الأبطال، "ذياب" الّذي أصبح فيما بعد صحفيا في جريدة الشروق مُطاردا بسبب أفكاره منتفضا على الرّموز التاريخية الّتي طالما آمن بها الناس وعزّزتها المؤسّسات الرّسمية، وتصف "الجازية" ابنه المجاهد "صالح" ثورته غير المتّزنة ضدّ التّاريخ في قولها:" كان يقول لي دائما يالجازيه أنا وأنت خير من الأمير عبد القادر والمقراني.. أبطالنا الأسطوريون خير من أبطالنا الحقيقيين.. الشعب هو الّذي صنعهم.. وهو الّذي مازال يعطيهم القداسة.. الرسميون لم يعطهم القداسة إلا الرسميون لأغراض أخرى أولها تخدير الشعوب.. ألا تعرفين أن الأمير حين استسلم لفرنسا قد خان القضية وخان الّذين حملوا معه السّلاح واستشهدوا.. ثم يتبركن فيصيح في وجهي هل يجوز للأبطال أن يستسلموا...؟ للأبطال طريقان لا ثالث لهم الانتصار أو الموت.. الأبطال ليسوا ملكا لأنفسهم.. هم ملك للشّعب ثم ألا تعرفين أنّ...؟ كان ذياب يحبّ التاريخ بجنون ويقرؤه بنهم ولكنه لم يكن يقدّسه.." (عز الدين جلاوجي، ص 25،26)، هكذا تُعيد الذّات قراءة نفسها من خلال استرجاع تاريخها وإعادة مساءلته بحثا عن اليقين، أو رغبة في تحقيق ما كان مرغوبا فيه، ومجرّد هذه المساءلة الّتي هي حالة من الشكّ، تُعدّ حلقة مفقودة بين الماضي والحاضر، كما أنّ موت الرّمز يعني موت القدوة الّتي تمثّل للإنسان المشعل والمنارة الّتي يهتدي بهما، وبالتّالي التفرّق عن المركز الّذي يجتمع حوله الأفراد، ولا عجب أن نرى ذلك التّشتّت متجسّدا في ذهنيّات الأفراد الّذين ظهرت عليهم نوازع الاختلاف والتّيه.

3.2.4 الصّراع بين الأجيال:

عُدّ الصّراع بين الأجيال عاملا محفّزا لظهور المأساة الوطنية، فهو وإن كان غير مباشر، إلا أنّه ساعد على ظهور جيلين متنافرين، فجيل الثّورة يرى أنّه القدوة والمثل وأنّ غيره لم يقدّم شيئا، بينما يرى الطّرف الثاني –أي جيل ما بعد الاستقلال– أنّ من سبقوه هم أكثر مثالية وبعدا عن الواقعية، فهذا الجيل لفرط خيبته من الوعود، وعدم وضوح رؤيته للمستقبل كان يتمنى عودة فرنسا لعلّها تحلّ له مشاكله، وقد جسّد هذا الصراع بين جيل المجاهد "صالح" وابنه البطّال الّذي كان دائم الحلم بالهجرة وواقع أحسن، ومما كان يدور بينهما من حوار دلّ على تشنّج بلغ أوجّه من قنوط ورفض كلّ طرف للآخر" كان عبد الرحيم يستمع إلي وأنا أصب عليه أطنانا من اللوم لقد كنت أعتبره دوما عدة البيت لأنه رجل البيت ووارث إمارتها.. لا هو نجح في دراسته كأترابه.. ولا هو عمل فأزال الغبن عني وعن أختيه وأمه.. ولا هو تزوج فأفرح الجميع وفتح بابا للأحفاد. حين ختمت كلامي الجارح اتكأ على قبضتيه وقام بصعوبة من فوق التراب حيث كان يَقْتعد متكئا على جدار وانصرف.. رميته برصاصات من فمي:

– النّار تلد الرماد

وعاد عبد الرحيم إلي كما لم يعد من قبل.. لم يشأ هذه المرة أن يسكت كما تعود لقد انفجر في وجهي صارخا:

– وماذا فعلت أنت لنا؟ أترابك والأقل منك سنا ينعمون الآن هم وأولادهم بالرفاهية.. فماذا فعلت لنا؟ ضيعت سبع سنوات في الثورة التحريرية.. بطنك كلها مخروقة.. رجلك عرجاء.. لم تجرؤ حتى على تقديم ملف والمطالبة بحقك في الوقت الّذي ينعم فيه العملاء بخيرات البلاد بفضل وثائق

مزورة.. ويسكنون قلب المدينة وعمقها.. في أحيائها الراقية.. وأنت ما زلت تسكن بنا أحياءها الشعبية على الأطراف.. كالذئاب المتوحشة"(عزّ الدّين جلاوجي، ص:70)، وتستمرّ نرجسيّة كلّ جيل معلنة عن غياب حوار أو تصوّر يليق بأيّ منهما، فهذه هوّة سحيقة بين الأفراد والجماعات، تعبّر عن فراغ روحي وفشل إصلاحي عجز عن إيجاد رؤية يتّفق حولها الجميع، وترسم في الوقت نفسه مسارا للائتلاف ونبذ الخلاف.

4.2.4 عداء أبناء الحركى ورغبتهم في الانتقام من عائلات المجاهدين:

مثّلت شريحة أبناء الحركى عاملا فاعلا في زرع الفتنة بين الجزائريين والمجاهدين منهم خاصّة، حقدا منهم على ما اقترفوه في حقّ آبائهم أيّام الاستعمار الفرنسي، فقد عزّز هؤلاء النّاس من الطبقية في المجتمع الجزائري بسبب ما كانوا ينعمون به من ثروات، وكانوا هم من حرّكوا الأزمة وساهموا في تأجيج نارها، وقد مثّل هذا في الرّواية شخص "امحمّد الملمّد" كما كان يكنّيه أبناء القرية، هو ابن الحركي الثّري الّذي نكّل بجثّة أبيه كلّ من المجاهد "صالح" ورفاقه أيّام الثّورة، وابن الحركي هذا أخذ على نفسه عهدا أن ينتقم من المجاهد "صالح" انتقاما ينال من الجميع كما ورد في حوار مع نفسه يتوعّد بذلك:" وجدت نفسي أسوق السّيّارة باتجاه ضاحية المدينة حيث يسكن الشيخ صالح عندي معه حساب طويل يجب تصفيته.. لن أنسى أبدا ما فعله بوالدي أثناء الثورة حين اختطفه مع بعض المجاهدين وجاؤوا به مكبّلا إلى بيته وحاكموه في اللّيل.. وعلمت بالأمر فقصدتهم صباحا وجدتهم قد رحلوا به.. لم تشأ صورة جثة أبي أن تُمحى من شاشة ذاكرتي.. بل كانت تتضاعف في كل لحظة.. وتتركز فوق الرقبة بالذات.. كانت القصبة الهوائية والأوداج مقطوعة.. عظام الفقرات واضحة للعيان.. النجيع المتجمد كقطع الكبد يغطي كل شيء.. لقد تخبط فيه بوجهه حتى تعفّر بالتراب رغم أنه كان مربوطا بسلك حديدي.. وكان لسانه قد خرج من فمه كلية.. أفزعتني الصورة.. غطيت عيني بيدي فكيف أغطي ذاكرتي الجريحة.. لم أفطن إلى نفسي.. رحت أضرب على المقود وعلى الباب وعلى صدري.. لكم الويل مني أيها الكلاب.. حقدي لا تمحوه إلا دماؤكم"(عزّ الدّين جلاوجي، ص: 78،79)، وحقده هذا حوّله إلى أحد قراصنة الأحلام الّذين اغتالوا طمأنينة الجميع وحرّكوا الفتنة على نار هادئة، وكانت أوّل الشِّباك الّتي عدّها لانتقامه هو تقرّبه من ابنة المجاهد "صالح" ورغبته في الزواج منها انقاصا من كرامته لا حبّا لها، وتبريرا لعقدة الشّعور بالذّنب الّتي كانت توجّه أفعاله وتحرّكها رغبة التّخلّص من واقع ما، ولعلّ الجواب الّذي ردّ به والد "الجازية" على الطلب خير دليل على أنّ الصّراع باق بين أبناء الحركى والمجاهدين " لقد كان عندي اللحظة مزهوا بماله.. لقد بال على كرامتي ألف مرة.. العميل ابن العميل.. بالأمس ذبحت أباه مرة واحدة.. وها هو اليوم يذبحني ألف مرة.. لعنة الله على حرية يذل فيها صانعوها.. ويعز فيها أعداؤها.. لو كنا نعرف أن هذا سيقع ما وضعنا السلاح.. البطل تخدعه الثقة.. والثورة قطّة تأكل أبناءها"(عزّ الدّين جلاوجي، ص: 84).

من الفتن الّتي أثارها ابن الحركي في الحيّ الفقير، تدنيسه لشرف الحسناء ابنة فقير من سكّان الحيّ حين خطفها وحولها إلى مومس تبيع جسدها، ودبّر مؤامرة لقتل "عبد الرّحيم " ابن المجاهد "صالح" في كمين إرهابي نصبه له، وكان وراء تدبير سجن "منير" المثقّف أخو "الجازية" بتهمة حيازة المخدّرات، وكان سببا أيضا في إبعاد "ذياب" خطيب "الجازية"، وهذا كلّه حتّى يجرّد "الجازية" من كلّ أهلها، كما سعى في تعطيل مشروع بناء مركز ثقافي في الحيّ الفقير وحوّله إلى مركز تجاري كبير، وبعدما عصف الإرهاب الظّالم بأرواح الفقراء، وجد الظّرف مناسبا للاستحواذ

على مساكنهم والاتفاق مع مصالح البلدية لهدمها كما ورد في أحد المقاطع الرّوائيّة: "حضر التقنيون برفقة امْحَمَّدْ امْلَمَّدْ وقد غدا رئيسا للبلدية.. بدأوا في قياس الشوارع والبيوت.. كان السكان يدركون أنها مؤامرة لترحيلهم وإسكانهم إيجارا في عمارات غير صالحة بنتها مقاولة امْحَمَّدْ امْلَمَّدْ.. وحاول السّكان منع التقنيين من مباشرة عملهم وهددهم امْحَمَّدْ امْلَمَّدْ بإحضار الشرطة.. وتحت ثورة الغضب اندفع المئات إلى المركز التجاري الّذي أقامه امْحَمَّدْ امْلَمَّدْ فأحرقوه عن آخره.. وتدخل عناصر الشرطة وأعوان امْحَمَّدْ امْلَمَّدْ.. وانتهت المواجهات ببعض الإصابات واحدة منها خطيرة حتمت نقل صاحبها إلى المشفى الجهوي"(عزّ الدّين جلاوجي، ص:78،79) إنّ أكثر ما يقضّ مضجع الفقراء هو الأمن الّذي حرموه بسبب عملاء تآمروا على سلام هذا الوطن مثل "امحمد الملمّد" الّذي بات يحمل حقدا تّجاه الجميع، وكان هو وراء عدّة عمليات إرهابية راح ضحيّتها خير شباب القرية الّتي وعد نفسه أن ينتقم من فقرائها.

لم تقتصر حالة أبناء الحركى على الانتقام من المواطنين الأبرياء، بل ظلّوا ينعمون برغد العيش وسط فقر الجميع، فهم مالكون للمصانع والأراضي ويعتبرون ذلك حقّا لهم وأنّ غيرهم عبيد لا يستحقّون الحياة، وهم كما يصفهم "امحمد الملمّد" بقوله:" في طريقي لم أكن أرى الناس أمامي.. وما كنت أحبّ أن أراهم.. يخيل إلى أنّ أياد تلوّح بالتحيّة بين حين وآخر لكني ما كنت آبه بهم.. أولاد الكلب كلما أمعنت في إذلالهم ازدادوا لي خنوعا.. جوّع كلبك يتبعك.." (عزّ الدّين جلاوجي، ص77) ويقول في مقطع آخر يصف فيه خدمه المتعطّشين لخدماته الّتي تغدق عليهم ببعض النّعم:" ثم أخرجت حفنة من القطع النقدية ورميتها عليهم عبر النافذتين.. وجمحت بي السيارة فانطلقت تاركة وراءها غبارا مركوما.. راحوا يتصارعون كالوحوش أيهم يظفر بأكبر حصة.. كم كان هذا الموقف يملؤني سرورا وابتهاجا فأضحك من أعماقي"(عزّ الدّين جلاوجي، ص78) لكن روح الانتقام وعاطفة الكراهية لم توصل هذا الخائن إلى آخر الطّريق، لأنّ حرائر الجزائر قد انتقمن لشرفهنّ، وشرف المواطنين، حين طعنته الحسناء انتقاما لشرفها والجازية انتقاما لدم أخيها "عبد الرحيم ".

5.2.4 الفقر والغبن الاجتماعيين:

تنمّ معظم الأماكن الّتي ورد ذكرها في الرّواية عن فقر ضاق أصحابه به، زاد من قنوطهم وعجزهم عن إيجاد بدائل للعيش الكريم، وأصبح كلّ ما في مجتمع يعمل متضافرا من أجل نسج شبكة من التردّي الاجتماعي المرير، كانت حارة (الحفرة) هي الصّورة الّتي تجمع كلّ أشكال الفقر، وقد صوّرها ابن الحركي "**امحمّد الملمّد**" لما زارها لطلب "الجازية" من أبيها "المجاهد صالح" قائلا:" بمجرد أن فتحت النافذة لفحتني نسمات حارة مفعمة بالرّوائح الكريهة العفنة المنبعثة من انفجار قنوات القاذورات.. وداهمتني زوبعة ترابية أثارتها أقدام الصّبية الحافية العارية""(عزّ الدّين جلاوجي، ص 79)، ولم يكن هذا الفقر ماديّا فقط، بل ونفسيا أيضا يُشعر الأفراد أنّهم محرومون من كلّ شيء حتّى من الأحلام الّتي هي زاد الفقير، يقول "عبد الرحيم" ابن المجاهد "صالح" واصفا هذا العوز النفسي:" كل شيء من حولي مقرف مقزز.. هذه المدينة عاهرة شمطاء.. البقاء فيها ضرب من المستحيل.. غدا كل شيء ضدّي.. في البيت تحاصرني نظرات والدي المُرّة وأنين والدتي الشّاحب.. في الشّوارع أحسّ نفسي أشبه بكيس بلاستيكي قديم تتراماه الرّياح في شوارع المدينة.. ما معنى أن أحيا إذن؟ لا يمكن أن أفكّر في الانتحار على الأقل بسبب الوازع الديني الّذي يَعُدُّ كل قاتل نفسه كافرا.. أو بسبب ما أحمل في نفسي من أحلام.. حلمي لعله صعب التّحقيق.. وربّما هو من

المستحيلات ولكنه يبقى أولا وقبل كل شيء حلما.."(عزّ الدّين جلاوجيّ، ص 65)، لكنّها كانت أحلاما عقيمة لا تتجاوز حدّ الاستئناس بها، لذلك كانت تدلف إلى مغامرات هجرة، لجوءا إلى الخلاص الأبدي من جحيم الوطن، وكان صراع "عبد الرحيم" ابن المجاهد مع نفسه لا ينتهي، فهو متردّد بين نشوة الحلم ومرارة تحقيقه "لا بد أن أسافر إلى فرنسا.. جنة الأرض هي فرنسا.. فرنسا وحدها قادرة على أن تمسح أحزاني وفقري.. يجب أن أسافر وهناك يجب أن أتزوّج فرنسية تسويّ لي وضعيتي وأستقر هناك إلى الأبد.. ماذا استفدت أنا هنا...؟ إنني أجفّ كل لحظة.. ما أصعب على الإنسان أن يتأمل نفسه يموت عضوا فعضوا.. أن يصفر ورقة ورقة.. وغصنا غصنا. ثم يتهاوى شجرة خاوية.. تعرِّس فيها الديدان بدل الشَّحارير.. تزعرد فيها القتامة بدل الإشراق" (عزّ الدّين جلاوجي، ص: 67)، وما كان يزيد أسى "عبد الرّحيم" هو الفوارق الاجتماعيّة بين المواطنين المُنتمين إلى البلد الواحد، فطبقة تنعم برفه العيش، وأخرى تستغيث تحت وقع العوز" أين الشعارات الجوفاء التي مللنا سماعها سنوات طويلة؟ لماذا يرتمي عْزَيِّزْ ربيب العجوز عكة والخيّر بلعوط في أحضان العربدة هروبا من الفقر ولماذا يشقى إبراهيم جحا والمفتش السيد 74معرفة العمر كله لتوفري لقمة تملأ البطن وثوب يستر البدن ويملك خنزير مثل هذا أطنانا من دماء الناس؟ أية عدالة في أن تتخم الأقلية وتعجز الأغلبية عن توفير قرب للحياة يُمارسُ فيه الحبّ وتزرع فيه أزهارا للمستقبل؟ ألسنا بلد البترول؟" (عزّ الدين جلاوجي، ص:73،74)، وهذه الفوارق الاجتماعية هي الّتي كانت مسؤولة عن ضياع أحلام أبناء الفقراء، وإرغامهم على ترك دراستهم مولّدة لديهم صراعا نفسّيا وإحساسا مريرا بالظّلم، وها هو عبد الرّحيم يواصل لومه في نفسه وندمه على ما ضاع منه بسبب العَوز" ...هو يعرف أنين كنت أحسن تلميذ في المدرسة وفي الإعدادية.. وأن أترابي الذين يعلّقون الشهادات العالية ويتصدرون المناصب العليا.. كانوا يتطفلون علي في الامتحانات.. ولكن الفقر كان البتار الذي قصم ظهري.. الدّيناغول الذي ابتلع كل أحلامي وآمالي ..فلماذا يعيد على والدي أسطوانته الكريهة كل مرة؟" (عزّ الدين جلاوجي، ص:86،87) كانت هذه العوامل كافية لقهر آلاف الأحلام الّتي بقيت مؤجّلة إلى حين عبثت بها أيادي الإرهاب فيما بعد، لأنّ "عبد الرحيم ما فتئ أن استسلم لواقعه الفارّ من جحيم البطالة، والمستجيب لحاجة الدّولة إلى رجال الأمن وعمل شرطيّا، لتغتاله أدي الظّالمين بكلّ برود.

يُعدّ الحرمان من الحقوق الطّبيعيّة للمواطن من الأسباب الّتي تُحدثُ شرخا بين المواطن ووطنه ويُستعبدُ على إثرها التّشبّع بمفهوم المواطنة، وإذا كانت في جوهرها تعني تحقيق العدالة الاجتماعية، فإنّ ضياع حقوق مواطنيها هو أوّل انتهاك لها، نجد في الرّواية تصويرا لضياع أحلام مشروعة لمواطن بسيط " بقي عْزَيِّزْ يتيما مع ضرة أمه.. غادر مقاعد الدراسة مبكرا واشتغل نادلا بالمقهى ليجد نفسه في أحضان مجاعات من اللّصوص مدمني الخمور والقمار.. دخل السجن مرارا ..كثيرا ما كان يزورني في البيت ليال مع صاحبه الخيّر أو وحده وهو في حالة عربدة.. أقدّم إليه فنجان قهوة وأجلس أستمع إلى حديثه الذي يطول لساعات ..كان يحلم بالزواج والاستقامة.. كان يحلم أن يكون له بيت يأويه ويكون له فيه أطفال.. ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه"(عزّ الدّين جلاوجي، ص: 186).

6.2.4 موت الحبّ:

جمع "الجازية" و"ذياب" عاطفة حبّ نبيلة شهدت عليها طفولتهما، وكانت هي أسمى ما تعاهدا عليه، لكنّ ظروف الحياة شاءت العكس، إذ انتقلت عائلة "الجازية" لتقيم في مدينة "عين الفوارة"

بحكم تخصّصها في التّمريض، بينما انتقل "نياب" إلى العاصمة وعُيّن صحفيًّا في جريدة (الشّروق) اليوميّة، وكان هذا بداية صراع في علاقة حبّ كانت قضيّة لكلا الطّرفين، ففي بداية هذا المفترق كان "نياب" على عهده لم يتغيّر، وكنت أوّل رسائله معبّرة على ذلك " كانت أول رسائلك إلى لا تحزني.. لن أبدِّلك أبدا.. ولن أكون إلا لك لن أخون حبنا.. سأحلِّقُ كطائر النّورس حيث شئتُ.. ثم ليس لي عشٌّ إلا داخل قلبك سأغرِّد كالشُّحرور أنّى شئتُ.. ثم ليس لي إلا فؤادك أعزف على أوتاره ترنيماتك الشجية"(عزّ الدّين جلاوجي، ص: 64) لكنّ كلّ شيء بدأ يتغيّر لمّا اشتدّت وطأة العشريّة السَّوداء، وضُيِّق الخناق على الصحفيين ذوي الأقلام المجاهرة بالظّلم، وقد بدأ يتراجع هاهنا "نياب"، الحصن الّذي كانت تحمي به "الجازية" ضدّ قسوة الظّروف وتسلّط ابن الحركي، "امحمد الملمّد" عليها" أمّا إزاء حالات العنف المتصاعد وتوتر الأحداث، فإن حب الذّات يطغى على حب الآخر، وتنتهي القيم والمثاليات والكل ينظر إلى الكون من دائرته الخاصة، ويعلي من شأن مصالحه الذاتية على مصالح الآخرين"(سعاد عبد الله العنزي، ص 77، 2008) لقد بدأت فجيعة "الجازية" عندما بدأت أخبار "نياب" تنقطع، وعبثا حاولت الوصول إليه رغم سفرها للعاصمة ولمقرّ الجريدة، لكنّ أيادي الغدر باتت تعصف به خاصّة وأنّه كان قلما حادّا ضدّ الخونة. لم يكن موت الحبّ مُعلنا بين الحبيبين فقط، بل حتّى بين الأقارب، والإخوة، وبين الأزواج داخل أسرهم، ويحضر في الرّواية مثالٌ واضحٌ ودليل على انتهاك حقوق الزّوجة والظّلم المُمارس عليها، ويروي المجاهد صالح ما حدث ليلة إنقاذه لزوجة جاره من بطش زوجها:" لحق بي آخرون وتعاونوا جميعا على فتح الباب.. كنت أول الدّاخلين.. لم يتفطن إلى أهل البيت حتى وقفت عندهم.. كانوا خمسة أطفال يتكوّمون في ركن الدار يُجلِّلُهم الفزع والرُّعب ويرتفع عويلهم مالئا الحجرة.. وكانت البنت الكبرى ذات الثالثة عشرة من عمرها تمسك بذراع أمها وتجذبها بقوة محاولة تخليصها من أبيها إبراهيم جحا الذي جثم فوقها يشبعها ضربا.. وكانت الزوجة منبطحة على الأرض تندب وتشتم"(عزّ الدّين جلاوجي، ص: 120)، إنّها حالة من التّشظّي أصابت الهرم الاجتماعي على مستوى الأفراد وقيمهم، ومُثلهم، واجتياح للاغتراب الرّوحي وسط غياب القيم وانهيار منظومات الأخلاق.

7.2.4 تهميش المثقّف:

عند الحديث عن تهميش المثقّف، فإنّ الكلام يعود حتما على فعل عمديّ مقصود منه تغييب صنّاع الوعي ودورهم في المجتمع، وربّما تُعدّ محنة هذا التّهميش الّذي تعود نتائجه السّلبيّة على المجتمع كلّه عاملا آخرا لا يقلّ أهميّة عن العوامل سّابقة الذّكر الّتي هدّمت المجتمع وقضت على قيمه وقدوته، وفي هذا المقطع دليل على انقلاب الموازين وإنصافها أهل المظالم: " أردت أن أقول له لِم يُمنح بعض المسؤولين الذين يخربون البلد السيارات الفاخرة.. وينجز هو عمله مرتجلا رغم مستواه العلمي ومهمته الصعبة؟ ولكنّي سكت وهو يضغط على أصابعي ويقول:

ذو العلم يشقى في النعيم بعقله * وأخو الجهالة في الشقاوة ينعم

كان هذا البيت الشعري كاف للإجابة عن حيرتي كأنما قرأ ما جال في نفسي"(عز الدّين جلاوجي، ص:141)، تظهر في متن هذه الرّواية قضايا المهمّشين، وصراعهم النّفسيّ الّذي ظهر في دول العالم الثّالث بطريقة مُمنهجة تهدف جعل هذه المجتمعات في حال صراع مستمرّ، لأنّ الثّقافة فضلا على أنّها مجموع العادات والتّقاليد والأعراف... هي أيضا مجموع قيم تحدّد الوجود الإنساني "وهكذا تنسج حكاية المُهمّش روايتها، تبنيها على إيقاع زمنها، وبديناميّة سرديّة حواريّة لعالمها، وبهذه

الخصائص الفنيّة ينفتح عالم الحكاية الخاصّ على عالم الإنسان العام، إنّه الفنّي الّذي يجعل الحكاية توحي بأكثر ممّا تقول، أو هي الفنيّة الرّوائيّة الّتي ترتقي بالمروي الخاصّ إلى العامّ"(يمنى العيد، ص23، 2011)، ويُعدّ عدم الاكتراث للمرافق الثّقافية وبنائها وتشييدها من الأمور الّتي تهدم المشهد الثّقافي ووعي النّاس به " تأمّلت الصّرح وقد كاد يستوي.. وتذكّرت حلمي وحلم عمي صالح ..كنت أقول له دائما لابد أن نسعى في إقامة دار للثّقافة.. حارة الحفرة مليئة بالمواهب.. الفقراء وحدهم هم المبدعون.. الفقراء خير الإنسانية لولاهم لامَّحَت كل القيم.. كان ينظر إلي بعين الإعجاب ويقول: والأغنياء سوس الإنسانية"(عز الدّين جلاوجي، ص: 172)، علينا أن نعيَ جيّد أهميّة وقصديّة هذا التّغييب الثّقافي وهو الّذي له الدّور الأوّل في إعداد الإنسان فكريّا، وحضاريّا من أجل وضعه في سياق واعٍ قادر على حلّ المشكلات، النّتائج الّتي ترتّبت عليه وخلقت مناخا مناسبا لمثقّف معزول لا يقوم بمهمّة النّخبة الّتي لها الصّدارة في المشاركة في حلّ الأزمات ووضعها في سياقها الواقعي الّذي تترتّب عنه حلول واقعيّة، ومشكلة الثّقافة والمثقّف الّتي عُرضت في مقاطع هذه الرّواية، إنّما هي مشكلة الجزائر في مختلف فتراتها التّاريخيّة.

8.2.4 التّعصّب الدّيني:

يُعدُّ الدّين كما الأطر الثّقافيّة والاجتماعيّة نسقًا مهمّا منظّما للجماعات، ومحافظا على تماسكها، لذلك تسعى كلّ المجتمعات لوضع اعتبار للخطاب الدّيني وتحديد ضوابطه الّتي من خلالها يتمّ تصوّر المرجعيّة والهويّة للأفراد وتعاملهم مع المؤسّسات الرّسميّة. لقد تحدّدت المرجعيّات الدّينيّة في المجتمع الجزائريّ استنادا إلى الموروث السنّي الأشعري والمالكيّ والصّوفيّ الّذي ظلّ ميراثا لا نقاش فيه، منه تحقّقت الوحدة الاجتماعية "إنّ ضبط المجتمع الجزائريّ عبر قيم معايير العقيدة الإسلاميّة شكّل حلّا واقعيّا لقرون من الزّمن، عبر مؤسّسات الزّوايا القائمة في صلب التّديّن الجزائريّ، فعبر منطق ووظيفة الزّوايا الاجتماعيّة والدّينيّة، تجسّدت مفاهيم وممارسات هويّة جزائرية حقّقت المصالح الدّنيوية للفرد وللجماعة، وفكّكت التّناقضات الاجتماعية القائمة على عدم المساواة، والشّعور بغياب العدالة الاجتماعيّة لدى كثير من الجماعات، لم تكن هذه الثّقافة ذاتها سوى الدّين بروحانية القيم المنتشرة في العلاقات الاجتماعية اليوميّة، ثقافة تعين هويّة الفرد والجماعات ومرجعيّته بالانتماء الاجتماعيّ والرّوحيّ لجملة ما تمثّله روابط الدّين الأفقيّة والعموديّة"(عبد النور مختاري، ص: 113، 2013)، ورغم هذا الموروث البنّاء، ظهرت حركة جديدة تتبنّى فهما مختلفا للنّصّ الدّيني وأنساقه المشكّلة له، تصوّر يتّخذ صيغ النّهي والأمر والعنف بدل التّسامح والعيش المشترك أبجديّة له، وفي هذا الحوار بين الجازية والحسناء والجماعة المتعصّبة ما يدلّ على تطرّف الذّهنيّات ووهم مرجعها :"ولم تكمل حديثها حتى باغتنا ثلاثة من الفتيان عليهم ملامح التّديّن ..أُسْدِلت لحاهم واستوت العمائم على رؤوسهم.. وكُحِّلَت عيونهم ..مل أنطق إلا بكلمة مرحبا.. حتى عجل أوسطهم والظاهر أنه سيدهم ..عجل إلي يقول– :

الخلوة حرام.. قال الرسول –صلى الله عليه وسلم–: "ما خلا رجل بامرأة إلا كان الشيطان ثالثهما "

ولم ترتكه حسناء ليواصل فقالت بغضب:

–وما دخلك أنت؟ أم نصَّبت نفسك أميرا على الأمّة ونحن لا نعرف؟ ولم يزد أن قال دون أن يرفع بصره – :اسكتي، صوتك عورة.. وقِرْنَ في بيوتكنَّ ولا تبرَّجْنَ تبرُّج الجاهلية الأولى.. الزمي بيتك يا أَمَة الله.. نحن جماعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.. وقد بلغنا اللهم فاشهد" عزّ الدّين جلاوجي، ص: 110، 111)، إنّ التّعصّب في فهم النّص الدّيني مُبرَّرٌ ومقصود، لأنّ المتطرّفين

استبدلوا الأطر المعروفة لفهم هذا النّص والخاضعة لقوانين فهم وتأويل الخطاب، بأطر ذاتية لا تخضع لاتّفاق الجماعة في الفهم وإخراج المعنى من حيّزه المعقول إلى المُفرط والمبالغ فيه، فتحوّل الدّين من كونه مرجعيّةً فكريّة وحضاريّة إلى أخرى سياسية تهدف إلى النّفوذ والاستغلال، هو تحوّل مُربكٌ في نظام الجماعة وسلّم قيمها "وتعدّدت الممارسات والقيم والمعايير والاتّجاهات والقِبل والتّوجّهات كما يسمّيه علماء الاجتماع " **بالاختلال الاجتماعي**" أو فقدان المعايير الاجتماعية داخل المجتمع، والمجتمع الجزائري لا يعدو أن يمثّل إلّا خللا في ديناميكيّة التّغيّر الاجتماعيّ في مستواها الجذريّ والمفاجئ، أفقد المجتمع معه قدرته التّقليديّة بمقاييس الضّبط والمرجعيّة والشّرعيّة الدينية في تفعيل القيم والمعايير والمقاييس الثّقافيّة، الّتي كانت تنتج المعنى والوعي والفهم والممارسة وتضبط العلاقة بين الوسيلة والهدف" (عبد النور مختاري، ص:116، 2013)، إنّ إقحام النّص الدّيني في صراع المصالح هو عملٌ يبحث عن السّلطة، وعن توظيف غير شرعيّ له، ويدخل في متاهةٍ تُسفر عن فهم فرديٍّ وليس جماعيٍّ مُؤسَّس.

9.2.4 من السّقوط الاجتماعيّ إلى الانفجار المحتّم:

لم يكن لتفاعل العوامل الّتي سبق ذكرها أن يمرّ مرور الكرام دون أن يحدث انفجارا اجتماعيّا رهيبا معبّرا عن ردّة فعل طبيعيّة " وهنا تتحوّل الاحتجاجات على التّهميش الاقتصادي والاجتماعي إلى ثورة ممتدّة، وتؤدّي إلى تتابع موجات الغضب الشعبي، فيما تطلق عليها بعض الأدبيات الدّولية "سياسات الشعوب" أو "سياسات المواد التموينية" حينما تلقي الحكومات بأعباء ثقيلة على شرائح اجتماعية غير قادرة على التكيف معها"(https://futureuae.com)، إنّ الثّورة على الفساد المتردّي لا تقتصر على الأبطال الثّوريّين فقط، بل يكون الثّائر الأوّل المواطن الّذي ذاق مرارة الجوع الإنساني، وها هي الجازية أوّل ثائرة تجهر بتمرّدها على الأعراف المقدّسة " أنا الذي جيب أن أقتله.. سأنتقم للجميع.. لأخي عبد الرحيم ..للرومية.. لأبي.. لعزيّزْ.. لـ.. وسأقتله أمام الناس جميعا.. بطعنة خنجر ..يستحسن أن يكون بطلقة مسدس.. كيف يمكن أن أحصل على ذلك؟ سأتمرن على الإطلاق.. الشيء سوى أن أمسك المسدّس.. أصوبه.. أضغط على الزناد.. وتزغرد حارة الحفرة ملء فيها"(عز الدّين جلاوجي، ص: 196)، إنّها ثورة على منظومة مُمثّلة في شخص سيتبعه أشخاص آخرون استجابة لقانون الثّورات الّذي عرفته الدّول قديما وحديثا.

5. خاتمة:

لقد اصطدمت الجزائر بعد الاستقلال بواقع مرير شبيه باستعمار ثانٍ، ظلّ يخترق أمن المجتمع من خلال عبثه بالقيم الّتي كانت لفترة طويلة عقيدة راسخة لدى الجزائريين، ثمّ ما لبث هذا التّآمر أن فجّر المأساة الوطنية الّتي وسمت بالعشرية السّوداء، وبعد تحليل الرّواية توصّلنا إلى ما يلي:

- لا يمكن للمجتمعات أن تنهار دون وجود مقدّمات مُمهّدة لذلك، سواء على الصّعيد الاجتماعيّ، أو الأخلاقيّ، أو الاقتصادي.
- لقد أدّى كلّ من الصّراع الاجتماعي وانهيار القيم المجتمع الجزائري في فترة التّسعينيّات دورا مهمّا في جعله هشّا قابلا للانهيار.
- من مظاهر صراع القيم؛ صراع قيم الفرد وقيم الجماعة وتنافرهما.
- من صور السّقوط الاجتماعي الّتي ذُكرت في الرّواية هي: زيف **المدينة وانحطاطها**، فقد تحوّلت هذه الأخيرة من حاضنة للجمال إلى مَفزع تفرّ منه الأجساد والأرواح، **وسقوط الرّموز التّاريخيّة** الّتي سُلِبَتْ منها خاصيّة القدوة والمثل الأعلى، كما أدّى **الصّراع بين**

الأجيال إلى إحداث فجوة أصبحت تشكّل خطرا على النّسيج الاجتماعي، هذا ناهيك عن **حقد أبناء الحركى** ورغبتهم في استكمال مشروع هدم قيم الوطن، بينما مثّل كلّ من **موت الحبّ، والفقر والعوز الاجتماعيّين** صورة معبّرة عن اغتراب الإنسان في مجتمعه، هذا دون أن ننسى ما لدور **التّعصّب الدّيني، وتهميش المجتمع** من خطر على تشويه القيم وانحدارها.

- لقد صوّر صراع القيم ومظاهر السّقوط الاجتماعيّ بجمالية بارعة في رواية (راس المحنة) فهو تصوير قد جمع بين المتعة والواقعيّة الّتي تشخّص الأحداث.
- إن تمّ الاتّفاق على أنّ أحداث هذه الرّواية حدثت في فترة معيّنة من تاريخ الجزائر، وعصفت بأمنه، وقد تمّ تجاوزها، فإنّ العوامل نفسها إذا تكرّت في سيقات مشابهة، قد تُعيد الأحداث نفسها استنادا إلى مبدأ السّبب والنّتيجة.
- غالبا ما يتمّ تقديم رسالة ما في الرّواية، فتُعدّ هي نفسها قيمة منسجمة مع محتوى ما تقدّمه.

6. قائمة المراجع:

1. بيير زيما (1991)، النقد الاجتماعي، نحو علم اجتماعي للنّصّ الأدبيّ، تر: عايدة لطفي وآخرون، مصر، ط1.
2. سعاد عبد الله العنزي (2008)، صور العنف السياسي في الرواية العربية المعاصرة–دراسة نقدية– أطروحة مقدمة لكلية الدراسات العليا، عبد عبد الفتاح الحجمري (1996)، عتبات النص، البنية والدلالة، منشورات الرابطة، الدار البيضاء، ط1،كويت.
3. عبد الله إبراهيم وآخرون، (2009)، الرّواية العربية وممكنات السّرد، أعمال النّدوة الرّئيسيّة لمهرجان القرين الثّقافي الحادي عشر، 13/11 ديسمبر، الكويت.
4. عبد النور مختاري (2013)، البنية الثّقافية وتداعيات الاختلال الثّقافي في المجتمع الجزائري، مجلة العلوم الاجتماعية و الانسانية، المجلّد الثّالث، العدد الرّابع، جامعة محمد بوضياف، المسيلة .
5. عز الدين جلاوجي: راس المحنة(رواية)، دار المنتهى، الجزائر، (د.ط.ت.ش).
6. مالك بن نبي، (1981) الصراع الفكري في البلاد المستعمرة، دار الفكر، دمشق، (د.ط).
7. مجموعة من المؤلفين: معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية انحليزي، فرنسي،عربي،(د.ط.ت.ش).
8. محمّد بو عزّة، (2014)، سرديّات ثقافيّة، منشورات ضفاف/ الاختلاف، دار الأمان، الرّباط، ط1.
9. محمّد القاضي (2008)، الرّواية والتّاريخ، دراسات في تخييل مرجعيّ، دار المعرفة، تونس.
10. محمّد مجذوب، الاتّجاه السّوسيو أنتروبولوجي في دراسة المجتمع، وكالة المطبوعات، الكويت، (د.ط.ت.ش).

11. يمنى العيد (2011)، الرّواية العربيّة– المُتخيّل وبنيته الفنيّة– دار الفارابي، بيروت، لبنان.

المواقع الإلكترونية:

12. انعكاسات مضادة كوابح اندلاع "ثورات الجياع" في المنطقة العربية **(2016)**، مركز المستقبل للأبحاث والدراسات المتقدمة، https://futureuae.com/ 2021/11/19/ 18:26